

تفسير البحر المحيط

@ 93 @ نطقهم يكون في موطن من مواطن القيامة ، أو من فريق من الناس ، لأن القرآن

يقتضي أنهم يتكلمون بحجج في غير هذا الموطن . .

ولما ذكر أشياء من أحوال يوم القيامة ، ليرتدع بسماعها من أراد □ تعالى ارتداعه ،

نبههم على ما هو دليل على التوحيد والحشر والنبوة بما هم يشاهدونه في حال حياتهم ، وهو

تقليب الليل والنهار من نور إلى ظلمة ، ومن ظلمة إلى نور ، وفاعل ذلك واحد ، وهو □

تعالى ، فيجب أن يفرد بالعبادة والألوهية . وفي هذا التقليب دليل على القلب من حياة إلى

موت ، ومن موت إلى حياة أخرى ، وفيه دليل أيضاً على النبوة ، لأن هذا التقليب هو لمنافع

المكلفين ، ولهذا علل ذلك الجعل بقوله : { لَيْتَ سَكُنْتُمْ أَهْلَ الْأَرْضِ فَأَحْسَبْتُمْ أَنَّكُمْ تُؤْتَوْنَ } ، وبعثة الأنبياء

لتحصيل منافع الخلق ؛ وأضاف الإبصار إلى النهار على سبيل المجاز ، لما كان يقع فيه

أضافه إليه ، كما تقول : ليك نائم ، وعلل جعل الليل بقوله : { لَيْتَ سَكُنْتُمْ أَهْلَ الْأَرْضِ فَأَحْسَبْتُمْ أَنَّكُمْ تُؤْتَوْنَ } ،

أي لأن يقع سكونهم فيه مما يلحقهم من التعب في النهار واستراحة نفوسهم . قال بعض

الرجاز : % (النوم راحة القوى الحسية % .

من حركات والقوى النفسية .

.) % .

ولم يقع التقابل في جعل النهار بالنص على علته ، فيكون التركيب : والنهار لتبصروا فيه

، بل أتى بقوله : { مُبْصِرًا } ، قيذاً في جعل النهار ، لا علة للجعل . فقال الزمخشري

: هو مراعى من حيث المعنى ، وهكذا النظم المطبوع غير المتكلف ، لأن معنى مبصراً :

لتبصروا فيه طريق القلب في المكاسب . انتهى . والذي يظهر أن هذا من باب ما حذف من

أوله ما أثبت في مقابله ، وحذف من آخره ما أثبت في أوله ، فالتقدير : جعلنا الليل

مظلماً لتسكنوا فيه ، والنهار مبصراً لتنصرفوا فيه ؛ فالإظلام ينشأ عنه السكون ، والإبصار

ينشأ عنه التصرف في المصالح ، ويدل عليه قوله تعالى : { وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ سَكَنًا

وَالنَّهَارَ عَمَلًا وَنَوْمًا } ، فمحو ناء آية اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا سَكَنًا ؟ فالسكون علة

لجعل الليل مظلماً ، والتصرف علة لجعل النهار مبصراً وتقدم لنا : الكلام على نظير هذين

الحذفين مشبعاً في البقرة في قوله : { وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الْوَعْدِيِّ

يَنْزِعُ عَرَصًا } . .

{ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ } ، أي في هذا الجعل ، { لَا يَأْتِيهِمْ فِيهِ الْيَوْمُ بِمِثْلِ الْيَوْمِ } : لما

كان لا ينتفع بالفكر في هذه الآيات إلا المؤمنون ، خصوا بالذكر ، وإن كانت آيات لهم ولغيرهم . { وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ } : تقدم القول في الصور في سورة الأنعام ، وهذه النفخة هي نفخة الفزع . وروي أبو هريرة أن الملك له في الصور ثلاث نفخات : نفخة الفزع ، وهو فزع حياة الدنيا وليس بالفزع الأكبر ، ونفخة الصعق ، ونفخة القيام من القبور . وقيل : نفختان ، جعلوا الفزع والصعق نفخة واحدة ، واستدلوا بقوله : { ثُمَّ نُنْفِخُ فِيهِ أُخْرَى } ، ويأتي الكلام في ذلك إن شاء الله . وقال صاحب الغنيان : { وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ } للبعث من القبور والحشر ، وعبر هنا بالماضي في قوله : { * ففزع } ، وإن كان لم يقع إشعاراً بصحة وقوعه ، وأنه كائن لا محالة ، وهذه فائدة وضع الماضي موضع المستقبل ، كقوله تعالى : { الْقِيَامَةَ فَأُورِدَهُمُ النَّارَ } ، بعد قوله : { يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ } . . . { إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ } : أي فلا ينالهم هذا الفزع لتثبيت الله قلبه . فقال مقاتل : هم جبريل ، وميكائيل ، وإسرافيل ، وملك الموت عليهم السلام . وإذا كان الفزع الأكبر لا ينالهم ، فهم حريون أن لا ينالهم هذا . وقال الضحاك : الحور العين ، وخزنة النار ، وحملة العرش . وعن جابر : منهم موسى ، لأنه صعق مرة . وقال أبو هريرة : هم الشهداء ، ورواه أبو هريرة حديثاً ، وهو : (أنهم هم الشهداء عند ربهم يرزقون) ، وهو قول ابن جبير ، قال : هم الشهداء متقلدو السيوف حول العرش . وقيل : هم المؤمنون لقوله : { وَهُمْ مِّنْ فَزَعٍ }